ماهية التجربة الدينية

أن الوقوف على معنى التجربة الدينية يتأتى من خلال استعراض رؤى المفكرين والمنظرين في هذا الصدد، إذ سننتهي من ذلك الى تعريف دقيق عن هذه الظاهرة، مما يسمح لنا بعدئذٍ بعقد مقارنة بينها وبين الوحي .

وسوف نقف على معنى التجربة الدينية عند بعض الفلاسفة والمفكرين :

التجربة الدينية عند شلاير ماخر :

يعد شلاير ماخر أول من تناول مصطلح " الشعور الديني"، ثم كتب بعده وليام جيمس كتاباً عنوانه نوع التجارب الدينية وقد ذكر شلاير ماخر السبب الذي دعاه الى خوض غمار هذا البحث ضمن مقدمة كتابه المسمى بـ "حول الدين" إذ قال ان بعض اصدقاءه عاتبوه بالقول : إن الالحاد والاتينية قد بلغا حد الذروة في القرن التاسع عشر، وقد تمايل اغلب الناس والعلماء نحو النزعة الإلحادية، فلم لا يتحرك ساكناً وأنت متكلم لاهوتي لتذب عن حياض الدين؟ لم لا نعلن أن من حق الدين أن يبقى حياً؟ لماذا لا تبين دوره وفاعليته؟ وهذا هو ما دفع شلاير ماخر ليكتب كتاباً خصصه للحديث عن الدين فأوضح فيه ما يجب معرفته من معنى الدين وقد تطرق الى مجموعة من الفرضيات ليخلص في النهاية الى رؤية في هذا المقام وبدأ من استعراض برهانه من خلال الفرضيات :

أ- هل الدين هو الميتافيزيقا [١]، الجواب الدين مختلف عن الميتافيزيقيا.

ب- هل الدين هو الاخلاق، يقول هاتان حقيقتان منفصلتان.

ت- هل الدين هو العرفان او التصوف، ويرفض شلاير ماخر هذا الفرض أيضاً.

ويخلص في نهاية المطاف الى ان الدين تجربة دينية، ويعرف التجربة الدينية بأنها الشعور بالاعتماد على موجود مطلق وحقيقة مطلقة، ويرى ان هذا الشعور

---

[١] الميتافزيقيا : الابحاث المرتبطة بمعرفة الله والدين والفلسفة .

بالاعتماد على الموجود المطلق هو شعور بالاعتماد الكامل على جهة أو قوة تمتاز عن العالم .

وعلى هذا الاساس يرى ان التجربة الدينية هي من جنس الاحساس والشعور لا من نسخ العلم أو المعرفة .

وبالتالي فان لغة الدين ليست لغة معرفية، والدين لا يتصف بأي صبغة علمية أو معرفية، بل إنه يمنحنا شعوراً روحانياً عبر عنه بعض علماء النفس بأنه شعور يخرج المرء من وحدته، ويرمي به في احضان اجواء روحانية معينة .

وقد ذهب شلاير ماخر في نظريته التي تزعم الانسجام والتناغم بين الدين والتجربة الدينية الى ان كل إنسان متدين، حتى إنسان القرن التاسع عشر، وانهم جميعاً يمتلكون تلك التجربة الدينية، وليس هناك من البشر من لا يشعر في قرارة نفسه بالاعتماد على الموجود المطلق الذي وصفه بأنه وراء هذا العالم .

وبناءاً على ما تقدم، فإن التجربة الدينية تنتمي الى احاسيس الإنسان ومشاعره، ولا يخفى ان الشعور ينطوي على مراتب ودرجات، فلا يبعد ان يدعي القائلون بالتجربة الدينية ان المرتبة العليا من هذا الشعور هي المرتبة المسماة بـ "الوحي" وهو ما ارسله الله سبحانه وتعالى تلقاه الإنسان منه .

التجربة الدينية عند ألستون

يرى ألستون ان التجربة الدينية أمر علمي، وليس من سنخ الشعور والاحاسيس، ويرى انه اذا انتهى الى ان التجربة الدينية تنتمي الى جنس الاحاسيس فمن اللازم ان يكون صاحب الاحساس موجوداً.

أما لو كانت التجربة الدينية من جنس العلم والادراك وهي العلاقة بين (المدرك والمدرك)، فلا محيص إذن من وجود مدرك ومدرك (متعلق الإدراك)، ولا مفر أيضاً من وجود مدركين. مدركاً أو معلوماً بالذات، او مدركاً او معلوماً بالعرض.

وبناءاً على ذلك فأن التجربة الدينية مقرونة بالتفسير على الدوام سواء كانت من جنس الاحاسيس او من انتمت الى فئة الادراكات.

إذن فالمراد من التجربة الدينية الشعور أو الادراك الذي ينتاب الانسان تجاه امر معنوي او روحي وحقيقة غائبة .

علاقة العقل بالدين

الكَثِيرُ مِنَ الفَلَاسِفَةِ وَالمُفَكِّرِينَ اعْتَبَرُوا الدِّينَ حَالَةً غَيْرَ عَقْلِيَّةٍ، حَيْثُ يَبْدَأُ الدِّينُ بِالتَّشَكُّلِ مِنَ النُّقْطَةِ الَّتِي يَنْتَهِي عِنْدَهَا العَقْلُ، وَتُؤَيِّدُ هَذِهِ الرُّؤْيَةَ التَّوَجُّهَاتُ الإِلْحَادِيَّةُ الَّتِي تَصِفُ الدِّينَ بِكَوْنِهِ مُجَرَّدَ خُرَافَةٍ.

وَالتَّفْكِيكُ بَيْنَ الدِّينِ وَالعَقْلِ لَا يَرْتَكِزُ عَلَى ضَرُورَةٍ عَقْلِيَّةٍ وَاضِحَةٍ، وَكُلُّ التَّبْرِيرَاتِ الَّتِي يُمْكِنُ أَنْ تُسَاقَ مُتَأَثِّرَةٌ بِالبِيئَةِ الثَّقَافِيَّةِ الَّتِي انْطَلَقَ مِنْهَا الفَيْلَسُوفُ الغَرْبِيُّ عِنْدَ مُقَارَبَتِهِ لِلدِّينِ، فَالظَّرْفُ الَّذِي تَوَلَّدَتْ فِيهِ هَذِهِ الفِكْرَةُ كَانَ ظَرْفًا خَاصًّا تَشْهَدُ فِيهِ أَوْرُبَّا وِلَادَةً جَدِيدَةً، وَفِي المُقَابِلِ مَوْقِفُ الكَنِيسَةِ الَّذِي كَانَ مُنَاهِضًا لِهَذَا المَشْرُوعِ، فَكُلُّ ذَلِكَ وَلَّدَ تَيَّارًا مُعَارِضًا لِلدِّينِ فِي أَوْسَاطِ العُلَمَاءِ وَالمُفَكِّرِينَ، فَمِنَ الطَّبِيعِيِّ أَنْ لَا تَكُونَ مُقَارَبَاتُهُمْ لِلدِّينِ إِيجَابِيَّةً فِي ظِلِّ تَعَنُّتِ وَتَحَجُّرِ الكَنِيسَةِ، فَكَانَ مَشْرُوعُهُمْ الثَّقَافِيُّ هُوَ زَعْزَعَةَ الثِّقَةِ فِي الكَنِيسَةِ وَفِي اللهِ وَفِي الدِّينِ بِشَكْلٍ عَامٍّ، وَمِنْ هُنَا كَانَ الفَصْلُ بَيْنَ الدِّينِ الكَنَسِيِّ المُتَحَجِّرِ، وَبَيْنَ العِلْمِ وَالعَقْلِ خُطْوَةً ضَرُورِيَّةً تُعَبِّرُ عَنْ تِلْكَ المَرْحَلَةِ.

لذا لَا يُمْكِنُ التَّسْلِيمُ بِوُجُودِ تَعَارُضٍ بَيْنَ الدِّينِ وَالعَقْلِ; لِأَنَّ الدِّينَ لَيْسَ إِلَّا خِطَابٌ لِلإِنْسَانِ بِوَصْفِهِ عَاقِلًا، وَبِالتَّالِي هُوَ خِطَابٌ خَاصٌّ لِلعَقْلِ لَيْسَ إِلَّا، وَمَعَ ذَلِكَ لَا نَمْنَعُ مِنْ حُدُوثِ هَذَا التَّعَارُضِ بَيْنَ أَفْهَامِ النَّاسِ لِلدِّينِ وَبَيْنَ العَقْلِ، بَلْ مِنَ الطَّبِيعِيِّ حُدُوثُ مِثْلِ هَذَا التَّعَارُضِ، لِأَنَّ مَسْؤُولِيَّةَ الفَهْمِ عِنْدَ الإِنْسَانِ لَيْسَتْ مَسْؤُولِيَّةً عَقْلِيَّةً مُجَرَّدَةً، وَإِنَّمَا تَتَدَاخَلُ عَوَامِلُ كَثِيرَةٌ فِي عَمَلِيَّةِ الفَهْمِ عِنْدَ الإِنْسَانِ، فَالمَصَالِحُ

وَالأَهْوَاءُ وَالشَّهَوَاتُ وَغَيْرُهَا لَهَا القُدْرَةُ عَلَى مُقَارَبَةِ الأَشْيَاءِ بِالشَّكْلِ الَّذِي يُخَالِفُ الوَاقِعَ، هَذَا مُضَافًا لِلأَخْطَاءِ الَّتِي تَنْشَأُ مِنَ الطُّرُقِ وَالمَنْهَجِيَّاتِ الَّتِي تُقَدِّمُ الأَشْيَاءَ لِلعَقْلِ بِصُورَةٍ غَيْرِ مُكْتَمِلَةٍ أَوْ مَغْلُوطَةٍ، فَيَحْكُمُ العَقْلُ بِنَاءً عَلَى مَا قُدِّمَ لَهُ مِنْ مُعْطَيَاتِ الخَارِجِ، فَلَيْسَتْ مُشْكِلَةُ المَعْرِفَةِ عَقْلِيَّةً، وَإِنَّمَا نَفْسِيَّةٌ وَمَنْهَجِيَّةٌ مَعًا.

كَمَا يَجِبُ الإِشَارَةُ إِلَى أَنَّ العَقْلَ الَّذِي أُرِيدَ لَهُ أَنْ يَكُونَ مُتَعَارِضًا مَعَ الدِّينِ، هُوَ العَقْلُ الوَضْعِيُّ أَوْ العَقْلُ التَّجْرِيبِيُّ; وَبِمَا أَنَّ الدِّينَ فِي أُصُولِهِ العَقَائِدِيَّةِ يَرْتَكِزُ عَلَى حَقِيقَةٍ غَيْبِيَّةٍ فَمِنَ الطَّبِيعِيِّ أَنْ لَا يَكُونَ خَاضِعًا لِلعَقْلِ التَّجْرِيبِيِّ، وَهَذِهِ الرُّؤْيَةُ لَمْ تَكُنْ مُجْحِفَةً فِي حَقِّ الدِّينِ فَقَطْ وَإِنَّمَا أَجْحَفَتْ فِي حَقِّ العَقْلِ أَيْضًا عِنْدَمَا اخْتَصَرَتْ دَوْرَهُ فِي حُدُودِ التَّجْرِبَةِ; فَالعَقْلُ كَمَا لَهُ القُدْرَةُ عَلَى الإِحَاطَةِ عِلْمًا بِمَا هُوَ حِسِّيٌّ وَشُهُودِيٌّ، لَهُ القُدْرَةُ أَيْضًا عَلَى العُبُورِ مِنَ الشُّهُودِ إِلَى الغَيْبِ، وَإِذَا كَانَ العَقْلُ فِي مَا هُوَ مَادَّةٌ يَحْتَاجُ إِلَى التَّجْرِبَةِ وَالمُخْتَبَرِ، فَهُوَ فِي مَا هُوَ خَارِجٌ عَنْ حُدُودِ المَادَّةِ يَحْتَاجُ إِلَى البَرْهَنَةِ وَالإِسْتِنْتَاجِ وَالإِسْتِنْبَاطِ، وَالعَقْلُ الَّذِي يَثِقُ فِي نَتِيجَةِ التَّجْرِبَةِ إِذَا اكْتَمَلَتْ شُرُوطُهَا الطَّبِيعِيَّةُ، هُوَ ذَاتُهُ العَقْلُ الَّذِي يَثِقُ فِي الإِسْتِنْبَاطِ وَالإِسْتِنْتَاجِ وَالبَرْهَنَةِ إِذَا اكْتَمَلَتْ شُرُوطُهَا العُقَلَائِيَّةُ، وَإِذَا كَانَ نِظَامُ التَّصْدِيقِ بِالحَقِيقَةِ فِي الأُمُورِ الحِسِّيَّةِ هُوَ المُطَابَقَةُ مَعَ الوَاقِعِ، فَإِنَّ نِظَامَ التَّصْدِيقِ بِالحَقِيقَةِ الغَيْرِ حِسِّيَّةٍ، هُوَ مُطَابَقَتُهَا مَعَ مَا أَوْدَعَهُ اللهُ فِي فِطْرَةِ الإِنْسَانِ مِنْ حَقَائِقَ; وَهَذِهِ الحَقَائِقُ الفِطْرِيَّةُ لَهَا مِنَ الوُضُوحِ وَالظُّهُورِ أَكْثَرُ مِمَّا لِلحِسِّ مِنْ ظُهُورٍ، فَالبَدِيهِيَّاتُ الَّتِي يَعْتَمِدُ عَلَيْهَا العَقْلُ التَّجْرِيبِيُّ أَكْثَرُ ظُهُورًا مِنَ التَّجْرِبَةِ نَفْسِهَا، وَإِذَا اعْتَرَفَ الإِنْسَانُ بِهَذِهِ البَدِيهِيَّاتِ فَمِنَ السَّهْلِ عَلَيْهِ الإِعْتِرَافُ بِوُجُودِ حَقَائِقَ فِطْرِيَّةٍ تُمَثِّلُ أُصُولَ الغَيْبِ فِي نَفْسِ الإِنْسَانِ. "فَهَلْ هُنَاكَ بُنْيَةٌ ذِهْنِيَّةٌ تَزْرَعُ فِي العَالَمِ شُعُورَ الإِنْسَانِ بِاللَّامَحْدُودِ وَاللَّانِهَائِيِّ وَالكُلِّيِّ القُدْرَةِ وَالعَظِيمِ وَالمَرْهُوبِ، وَتَجْعَلُ هَذِهِ كُلَّهَا شُعُورًا غَامِضًا بِالقَدَاسَةِ؟ رُبَّمَا تُوجَدُ مِثْلُ هَذِهِ البُنْيَةِ فِي العَوَاطِفِ الإِنْسَانِيَّةِ، لِمَ لَا؟! الوَاضِحُ أَنَّ افْتِرَاضَ وُجُودِهَا يُفَسِّرُالكَثِيرَ". وَمِنْ هُنَا كَانَ

تَحْجِيمُ العَقْلِ فِي إِطَارٍ ضَيِّقٍ هُوَ الَّذِي يُوْحِي بِحَتْمِيَّةِ التَّعَارُضِ بَيْنَ الدِّينِ وَالعَقْلِ، وَلَوْلَا هَذَا التَّكَامُلُ بَيْنَ العَقْلِ وَالدِّينِ لِمَا أَمْكَنَ أَبَدًا تَصْدِيقُ الأَنْبِيَاءِ فِيمَا يَدَّعُونَ.

وَالمُقَارَبَةُ المَتَفَهِّمَةُ لِلعِلَاقَةِ الجَدَلِيَّةِ بَيْنَ الرُّوحِ وَالبَدَنِ فِي الإِنْسَانِ، هِيَ ذَاتُهَا المُقَارَبَةُ الَّتِي تَتَفَهَّمُ جَدَلِيَّةَ العِلَاقَةِ بَيْنَ الدِّينِ وَالعِلْمِ، فَمَا يُحَقِّقُهُ العِلْمُ لِلإِنْسَانِ لَا يُمْكِنُ أَنْ تُحَقِّقَهُ الأَدْيَانُ، وَالعَكْسُ صَحِيحٌ، لَيْسَ لِأَنَّ العِلْمَ وَالدِّينَ شَيْءٌ وَاحِدٌ، وَإِنَّمَا لِأَنَّ كِلَيْهِمَا يَخْدُمَانِ الإِنْسَانَ المُرَكَّبَ مِنْ رُوحٍ وَمَادَّةٍ، فَمُحَاكَمَةُ الأَدْيَانِ بِآلِيَّاتِ العِلْمِ، أَوْ مُحَاكَمَةُ العِلْمِ بِأَدَوَاتِ الأَدْيَانِ، هُوَ الَّذِي يُحْدِثُ ذَلِكَ التَّبَايُنَ بَيْنَهُمَا.

وَمِنْ هُنَا كَانَتِ المُقَارَبَةُ المَطْلُوبَةُ هِيَ الَّتِي تَرْسُمُ نِقَاطَ الإِلْتِقَاءِ بَيْنَ الدِّينِ وَالعِلْمِ، وَلَا يَتِمُّ ذَلِكَ بِمُجَرَّدِ جَعْلِ مَقُولَاتِ الدِّينِ مَقُولَاتٍ مَعْرِفِيَّةً عَقْلِيَّةً، وَإِنَّمَا بِجَعْلِ غَايَاتِ العِلْمِ أَيْضًا غَايَاتٍ دِينِيَّةً، وَالَّذِي يُمَيِّزُ الدِّينِيَّ عَنِ اللَّا دِينِيِّ لَيْسَ مُجَرَّدَ نِسْبَتِهِ إِلَى المُقَدَّسِ، وَإِنَّمَا الَّذِي يُمَيِّزُهُ كَوْنُهُ قِيمَةً أَوْ لَيْسَ بِقِيمَةٍ، وَالمُقَدَّسُ نَفْسُهُ لَا يَكُونُ مُقَدَّسًا إِلَّا بِمِقْدَارِ مَا يَحْمِلُهُ مِنْ قِيَمٍ، وَالإِنْسَانُ لَمْ يَتَطَلَّعْ إِلَى الغَيْبِ إِلَّا لِكَوْنِهِ مَصْدَرًا يَسْتَلْهِمُ مِنْهُ قِيَمَ الحَقِّ وَالجَمَالِ، فَقِيمَةُ العُلُومِ بِمَا تَحْمِلُهُ مِنْ قِيَمٍ وَمَكَاسِبَ حَيَاتِيَّةٍ لِلإِنْسَانِ، وَقِيمَةُ الدِّينِ فِي دَعْوَتِهِ لِتِلْكَ القِيَمِ.

وَالَّذِي يَحْكُمُ كُلَّ هَذِهِ المُعَادَلَةِ هُوَ الإِنْسَانُ بِوَصْفِهِ مِحْوَرًا لِلدِّينِ وَمِحْوَرًا لِلعُلُومِ أَيْضًا، وَأَهَمِّيَّةُ الدِّينِ تَعُودُ إِلَى تَذْكِيرِ الإِنْسَانِ بِالقِيَمِ الَّتِي تَجْعَلُ مِنْهُ كَائِنًا لَهُ قِيمَةٌ، وَمِنْ نَفْسِ هَذِهِ الزَّاوِيَةِ يَكُونُ الدِّينُ مُهِمًّا فِي مَجَالِ تَطَوُّرِ العُلُومِ لِأَنَّهُ يُشَكِّلُ الضَّمَانَةَ الأَخْلَاقِيَّةَ لِذَلِكَ التَّطَوُّرِ، وَهَكَذَا تَكُونُ اللَّحْظَةُ الَّتِي نَتَسَاءَلُ فِيهَا عَنْ أَهْدَافِ العُلُومِ وَغَايَاتِهِ هِيَ اللَّحْظَةُ الَّتِي تُقَرِّبُنَا مِنَ الدِّينِ، وَاللَّحْظَةُ الَّتِي يَكُونُ فِيهَا الإِنْسَانُ مُتَدَيِّنًا يَكُونُ فِيهَا قَرِيبًا مِنَ الحَيَاةِ; لِأَنَّ القِيَمَ لَا يَكُونُ لَهَا مَعْنًى إِلَّا مِنْ خِلَالِ تَفَاعُلِهَا مَعَ الوَاقِعِ الحَيَاتِيِّ لِلإِنْسَانِ.

فَالنَّظَرُ إِلَى الدِّينِ بِوَصْفِهِ قِيَمًا يَنْتَهِي إِلَى العِلْمِ، لِأَنَّ القِيَمَ لَا يُمْكِنُ أَنْ تَرْتَبِطَ بِالوَاقِعِ إِلَّا إِذَا اسْتَعَانَتْ بِالعُلُومِ، وَالنَّظَرُ إِلَى العُلُومِ بِوَصْفِهَا قِيَمًا يُقَرِّبُهَا مِنَ الدِّينِ، وَكُلُّ ذَلِكَ يَكُونُ مَفْهُومًا إِذَا كَانَ هَدَفُ الأَدْيَانِ هُوَ إِعْمَارُ الحَيَاةِ وَتَطْوِيرُ الإِنْسَانِ فِي إِطَارِ القِيَمِ، كَمَا هُوَ حَالُ الإِسْلَامِ الَّذِي أَكَّدَ عَلَى ذَلِكَ فِي آيَاتٍ كَثِيرَةٍ عِنْدَمَا يَدْعُو إِلَى الحَيَاةِ وَإِلَى العِلْمِ وَإِلَى التَّعَقُّلِ، قَالَ تَعَالَى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا للهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً﴾. وَقَالَ: ﴿يَرْفَعِ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ﴾. وَقَالَ: ﴿نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَّن نَّشَاءُ وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ﴾.

فَالدِّينُ هُوَ الَّذِي يُعَزِّزُ مَسِيرَةَ العِلْمِ، وَالعِلْمُ هُوَ الَّذِي يُعَزِّزُ مَسِيرَةَ الإِنْسَانِ، وَمِنْ هُنَا فَإِنَّ الدِّينَ الَّذِي يَجِبُ أَنْ نَفْهَمَهُ لَابُدَّ أَنْ يَكُونَ إِطَارًا تَنْتَظِمُ فِيهِ كُلُّ قِيَمِ الكَمَالِ وَالجَمَالِ، كَمَا أَنَّ العُلُومَ الَّتِي يَجِبُ أَنْ تَسُودَ هِيَ العُلُومُ الَّتِي تُرَاعِي تِلْكَ القِيَمَ، وَإِلَّا أَصْبَحَ ضَرَرُهُ أَكْثَرَ مِنْ نَفْعِهِ كَمَا هُوَ وَاقِعُ الحَالِ اليَوْمَ.

يَقُولُ أينشتين: "لَا أَتَصَوَّرُ العِلْمَ دُونَ إِيمَانٍ عَمِيقٍ، وَيُمْكِنُ تَشْبِيهُ المَوْقِفِ بِصُورَةٍ مُجَسَّدَةٍ :العِلْمُ دُونَ الدِّينِ أَعْرَجُ، وَالدِّينُ دُونَ العِلْمِ أَعْمَى"(٢).

يَقُولُ البِرُوفِيسُورُ هوستن سميث أُسْتَاذُ الفَلْسَفَةِ وَعُلُومِ الأَدْيَانِ فِي العَدِيدِ مِنَ الجَامِعَاتِ الأَمْرِيكِيَّةِ:" تَعُودُ أَسْبَابُ الأَزْمَةِ الَّتِي يَمُرُّ بِهَا العَالَمُ وَهُوَ يَدْخُلُ الأَلْفِيَّةَ الجَدِيدَةَ إِلَى أُمُورٍ أَعْمَقَ مِنْ طُرُقِ تَنْظِيمِ الحَيَاةِ السِّيَاسِيَّةِ وَالإِقْتِصَادِيَّةِ. إِنَّ الشَّرْقَ وَالغَرْبَ يُعَانِيَانِ – كُلٌّ بِطَرِيقَتِهِ – مِنْ أَزْمَةٍ وَاحِدَةٍ مُشْتَرَكَةٍ سَبَبُهَا الحَالَةُ الرُّوحِيَّةُ لِلعَالَمِ الحَدِيثِ، فَقَدْ اتَّسَمَتْ هَذِهِ الحَالَةُ الرُّوحِيَّةُ بِفِقْدَانِ اليَقِينِ الدِّينِيِّ وَفِقْدَانِ الإِيمَانِ بِالسُّمُوِّ وَالتَّعَالِي عَلَى الوُجُودِ المَادِّيِّ بِآفَاقِهِ الرَّحْبَةِ الوَاسِعَةِ، وَطَبِيعَةُ هَذَا الفِقْدَانِ غَرِيبَةٌ، لَكِنَّهَا – فِي النِّهَايَةِ – مَنْطِقِيَّةٌ وَمُتَوَقَّعَةٌ، مَعَ تَدْشِينِ عَصْرِ النَّظْرَةِ العِلْمِيَّةِ البَحْتَةِ، وَبَدَأَ

إِحْسَاسُ البَشَرِ بِأَنَّهُمْ أَصْبَحُوا يَمْتَلِكُونَ أَسْمَى المَعَانِي فِي العَالَمِ وَيَعْرِفُونَ مَقَايِيسَ وَمَقَادِيرَ كُلِّ شَيْءٍ، بَدَأَتِ المَعَانِي فِي الإِنْحِسَارِ، وَأَخَذَتْ مَكَانَةُ الإِنْسَانِيَّةِ تَتَضَاءَلُ، لَقَدْ فَقَدَ العَالَمُ بُعْدَهُ الإِنْسَانِيَّ وَبَدَأْنَا نَفْقِدُ السَّيْطَرَةَ عَلَيْهِ"(٣).

وَمَا يَحْتَوِيهِ هَذَا الطَّرْحُ مِنْ تَبْسِيطٍ لَا يَتَجَاهَلُ حَجْمَ التَّعْقِيدِ الَّذِي يَكْتَنِفُهُ المَوْضُوعُ، إِلَّا أَنَّهُ تَبْسِيطٌ يُعِيدُ القَضَايَا لِحَجْمِهَا الطَّبِيعِيِّ، بَعِيدًا عَنِ المُحِيطِ الثَّقَافِيِّ الَّذِي حَصَلَ فِيهِ التَّبَايُنُ وَالجِدَالُ بَيْنَ العِلْمِ وَالدِّينِ، وَهَذَا الجَدَلُ التَّارِيخِيُّ مَرَّ بِمَحَطَّاتٍ مُخْتَلِفَةٍ كُلُّ وَاحِدَةٍ مِنْهَا أَضَافَتْ تَعْقِيدَاتِهَا الخَاصَّةَ، فَطَبِيعَةُ هَذَا النِّقَاشِ قَبْلَ عَصْرِ النَّهْضَةِ تَخْتَلِفُ عَنْ مَا بَعْدَهَا، وَهِيَ بِدَوْرِهَا تَخْتَلِفُ عَنْ مَا بَعْدَ الحَدَاثَةِ، وَيَخْتَلِفُ كُلُّ ذَلِكَ مِمَّا عَلَيْهِ الوَضْعُ فِي عَالَمِنَا الإِسْلَامِيِّ، وَالتَّفْكِيرُ فِي عِلَاقَةِ العِلْمِ بِالدِّينِ بَعِيدًا عَنْ كُلِّ هَذِهِ الظُّرُوفِ يَقُودُنَا إِلَى تَكَامُلِيَّةٍ فِي الْفَهْمِ يَكُونُ فِيهَا الدِّينُ وَالعِلْمُ الجَنَاحَيْنِ الَّتِي يُحَلِّقُ بِهِمَا الإِنْسَانُ.

وَعَلَيْهِ لَا يُمْكِنُ أَنْ نَتَصَوَّرَ أَنَّ حَيَاةَ الإِنْسَانِ تَسْتَقِيمُ فِي هَذِهِ الدُّنْيَا دُونَ الإِيمَانِ بِاللهِ تَعَالَى، وَبِالتَّالِي الخُرَافَةُ هِيَ أَنْ يَدَّعِيَ الإِنْسَانُ أَنَّ هَذَا الكَوْنَ قَائِمٌ بِدُونِ إِلَهٍ، وَأَنَّ الإِنْسَانَ بِوَحْدِهِ يُمْكِنُهُ أَنْ يَصْنَعَ لِنَفْسِهِ حَيَاةً أَبَدِيَّةً.